

نشأة الصراع العثماني المغربي ودور الجزائر في نسج معالم العلاقات بينهما

د. الشيخ عدة

جامعة حسبية بن بوعلي - الشلف - (الجزائر)

الملخص:

تتطرق هذه الدراسة الى موضوع نشأة الصراع العثماني المغربي ودور الجزائر في تشكل أحداثه وتطور العلاقات بينهما ، والذي يعد من بين المواضيع ذات الأهمية لكونه لا يشير الى العلاقات بينهما فقط، بل أنه يدخل في إطار العلاقات بين طرفين مسلمين في المشرق والمغرب وبالأخص في حوض البحر الأبيض المتوسط، والذي تحكمت فيه عدة أطراف أجنبية وبالأخص الأوروبية منها، وقد ارتبطت هذه العلاقات بينهما بظروف جعلتها تتأرجح تارة بين التوتر والصراع ، وتارة بين السلم والمهادنة. ومن هذا المنطلق ارتأينا تقديم هذه الورقة البحثية لمعرفة بدايات ظهور الصراع العثماني المغربي ودور الجزائر في تطور العلاقات بينهما بصفتها إيالة عثمانية. فما هي إذن أسباب الصراع والتوتر في العلاقات المغربية العثمانية؟ وكيف كان دور الجزائر فيها؟ وما العوامل التي أثرت في مجرى هذه العلاقات؟

الكلمات المفتاحية: العثمانيين، الجزائر، السعديين، المنصور، العلاقات.

Abstract

This study deals with the issue of the emergence of the Ottoman-Moroccan conflict and the role of Algeria in shaping its events and the development of relations between them, which is among the topics of importance because it does not refer to the relations between them only, but rather it falls within the framework of relations between two Muslim parties in the Levant and Morocco, especially in the White Sea basin The Mediterranean, which was controlled by several foreign parties, especially European ones, and these relations were linked to circumstances that made them oscillate between tension and conflict, and sometimes between peace and truce. From this standpoint, we decided to present this research paper to know the beginnings of the emergence of the Ottoman-Moroccan conflict and the role of Algeria in the development of relations between them as an Ottoman mandate. So what are the causes of conflict and tension in Moroccan-Ottoman relations? How was the role of Algeria in it? What factors influenced the course of these relations?

Keywords :

Ottomans, Algeria, Saadians, Mansour, Relations.

مقدمة :

بدأت العلاقات المغربية العثمانية وبداية معها الصراع بينهما في التشكل والبروز مباشرة مع دخول العثمانيين الى الشمال الإفريقي، وكان دوراً مميزاً وهاماً في مطلع التاريخ الحديث، إذ ومع مطلع القرن السادس عشر الميلادي؛ تأسست العلاقات بين الدولة العثمانية والمغرب مع بدء

حركة المقاومة ضد الإسبان والبرتغاليين في الشمال الإفريقي على اثر مساعدات الأتراك لسكان المنطقة لتخليصهم من عدوانهما واحتلالهما هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن علاقات المغرب بالدولة العثمانية تكتسي أهمية خاصة، بإعتبار أن المغرب ظل البلد الوحيد من بلدان العالم العربي التي امتنعت من الخضوع للإمبراطورية العثمانية من جهة، وإعتبار أن المغرب الأقصى كان مسرحاً للصراع بين المسيحية ممثلة في الدول الأوروبية والإسلام ممثلاً في دولة الخلافة العثمانية من جهة أخرى. ولعل هذا الصراع الذي ظل قائماً بين البلدين كان صراعاً على النفوذ وأحقية هذا النفوذ والزعامة للعالم العربي والإسلامي في المقام الأول، وهذا ما لم يحدث بين الدولة العثمانية وأي بلد آخر من بلدان العالم العربي سوى المغرب الأقصى الذي نازعت دوله (الوطاسية السعدية، العلوية) الخلافة العثمانية في الإمتثال لسلطتها الروحية التي دانت لها كافة أقطار العالم الإسلامي السني في المشرق والمغرب.

فقد سيطر العثمانيون على جل بلدان الوطن العربي منذ مطلع القرن السادس عشر والفترات اللاحقة، وأصبحت دولتهم أقوى وأكبر قوة إسلامية، امتد نفوذها إلى أوروبا وآسيا وإفريقيا، وأضحت القوة القائدة للعالم الإسلامي، لاسيما بعد أن ضمت الأماكن المقدسة في الحجاز وفلسطين إلى دائرة نفوذها، وقضت على حكم المماليك في مصر سنة 1516م، إلا أن المغرب الأقصى بقي خارج إطار سيادتها منذ ذلك التاريخ وحتى فرض الحماية الفرنسية عليه عام 1912م، إذ كان يتطلع إلى قيام وحدة إقليمية مغاربية، مما قاد إلى تناقض وصل حد الصراع السياسي والعسكري بين الجانبين.

تاريخ النشر 2021/01/21

تاريخ القبول: 2020/12/21

تاريخ الارسال: 2020/10/21

وبحكم الجوار بين البلدين، كان لابد من وجود علاقات سياسية تحكمها مجموعة من المصالح التي تسعى كل دولة لتحقيقها، فمع توالي الأنظمة السياسية في المغرب الأقصى تأثرت العلاقات بتوجه الأنظمة الجديدة وأهدافها. فما هي ظروف ودوافع تلك العلاقات، وماهي طبيعتها ومميزاتها، وكيف كانت أحداث ذلك الصراع بينهما وأهم مراحله؟ وهذا الذي سنحاول الإجابة عليه من خلال استعراض بدايات هذا الصراع ومراحله. وأبرز مميزات العلاقات بينهما في كل مرحلة.

1- في عهد الدولة الوطاسية:

من الأشياء المؤكدة والملاحظة تاريخيا؛ هو أن المسلمون في بلاد المغرب لم يستفيقوا من سباتهم إلا بعد أن خسروا العديد من الحصون الساحلية بعد أن احتلها الإسبان والبرتغال، ففي المغرب الأقصى كان الوطاسيون يواجهون القوتين في نفس الوقت بين كر وفر، وقد كان من بين الإستراتيجيات التي انتهجها الإسبان في تقسيم المغرب العربي وضرب وحدته، هو بذر الخلاف بين المرينيين والزينانيين، وكان ذلك سبب في عدم تحركهم وتوحدهم لإنقاذ الأندلس، وبدل ذلك دخلوا في حروب ضد بعضهم كلفتهم خسائر مهدت للأعداء إيجاد قدم لهم في المغرب، لكن الوطاسيين كانوا قد استفادوا من التجارب السابقة فعوض انشغالهم بالتوسع، انشغلوا بالجهاد ومؤازرة اخوانهم المسلمين في المغرب الأوسط، كما كان التنسيق بين المغرب الأوسط والأقصى مهما خاصة في عهد السلطان- أبا عبد الله الوطاسي- المدعو بالبرتغالي، فقد حاول أن يرسل مركبين لإعانة المغرب الأوسط ضد الأسبان وكان ذلك سنة (920هـ/1514م)، كما كان اهتمام الوطاسيين بأخبار مملكة الزينانيين بارزا، فلما دخل عروج تلمسان خرج منها أبو حمو الثالث هارب يطلب العون، وكان أول من طلب منهم العون حكام المغرب الأقصى في فاس، فوجدهم منشغلين بقتال النصارى فقرر طلب العون من الإسبان، وجاء بجيش كما تقدم ذكره وأخرج عروج من تلمسان¹.

وقد عبر الأستاذ أحمد توفيق المدني في كتابه حرب الثلاث مئة سنة عن قصة خروج عروج من تلمسان: "... ولما انتهى كل ذلك آوى عروج وبقيّة رجاله إلى قلعة المشور، فتحصنوا بها منتظرين

تاريخ الارسال: 2020/10/21

تاريخ القبول: 2020/12/21

تاريخ النشر: 2021/01/21

مددًا، وقد قيل أن عروج كان ينتظر النجدة من قبل ملك فاس الوطاسي المريني تنفيذًا لإتفاق عقد بينهما، وأن الملك المريني قد أرسل فعلا بجيش لنصرة عروج وتمكينه من الدفاع عن تلمسان ضد الأسبان وأنصارهم، لكن ذلك الجيش سار على طريق مليلة ، فطال به السير ولم يتمكن من الوصول إلى ميدان المعركة في الوقت اللازم....². وما يعزز هذا القول هو أن عروج فعلاً كان ينتظر المدد بدليل توجهه جهة الغرب في طرق ملتوية نحو الساحل.

ولما مات -أبو حمو الثالث-، ترك اثنين من ولده هما: محمد عبد الله الثاني 1518م، وأبو سرحان المسعود 1519م ، فكان الحكم للأول فتار عليه أخوه أبو سرحان المسعود ودخل تلمسان بمساعدة خير الدين ومساعدة الوطاسيين أيضا، الذين أمدهم بالمال والسلاح، كما ورد أيضا في هذا الصدد أنه بعد هزيمة الإسبان في غزوتهم الكبرى ضد الجزائر التي تعرف بغزوة -شارلكان- سنة 1541م، أرسل حسن باشا بن خير الدين برسالة إلى ملك فاس - أبي العباس الوطاسي - في 05 جانفي 1542م دلالة على التضامن بين القطرين، حتى أن السفن الجزائرية قد سمح لها الوطاسيين دخول ميناء تيطوان للتزود بالموثون³.

فلما قويت شوكة السعديين بقيادة محمد الشيخ الذي زحفوا نحو فاس عاصمة الوطاسيين الذين أصبح ملكهم في طريق الإندثار، وكان بها من سلاطين بني وطاس أبو العباس الذي حكم ما بين (1547م-1549م)، فضيق السعديون على فاس وحاصروها مدة أربعة عشر شهراً حتى اشتكى الناس من شدة ما هم فيه، ورأفة بالناس خرج السلطان الوطاسي إلى - محمد الشيخ السعدي - وطلب منه الأمان للناس مقابل تسليم فاس له، فأمنه محمد الشيخ السعدي ثم غدر به وقتله وحاشيته بالسهم بمراكش، لكن ولد السلطان المغتال كان قد فر إلى ناحية الريف قبل موقعة فاس، وأخذ يتربح حتى بلغه مقتل والده وكان ذلك سنة (956هـ/1549م)⁴.

فأنطلق الأمير الوطاسي - أبي الحسن المريني - إلى ملك إسبانيا يطلب منه العون، لكن ملك النصارى رفض أن يعينه بالجند فأعطاه المال وأشار عليه بطلب العون من الترك في الجزائر، قائلاً: "... وأنت يا سلطان اسمع ما أقول لك ورأي عليك سعيد وتديري لك مفيد... يا سلطان أن أعطيتك جيش النصارى لم يبق لك في المغرب ناصح ولا في المسلمين حبيب فتجتمع كلمة المسلمين عليك ... إنما يليق بك أن تذهب إلى الجزائر وتنعم لهم بالمال وتخرج محلة الترك..."⁵.

وكان ملك إسبانيا من وراء هذا يريد أن يورط الترك العثمانيين في حرب ضد السعديين، فكان له ما أراد، ثم انطلق الأمير الوطاسي إلى ملك البرتغال فأمدّه بسفن لبلوغ مراده لكنه أسر من طرف الأسطول الجزائري الذي كان يتوجه إلى صحرة بادس فقص عليهم ما فعله السعديين بفاس ووعدده صالح ريس بالمدد وتمكينه من دخول فاس شريطة الاعتراف بالتبعية للسلطان العثماني، فجهز صالح ريس اثنتان وعشرون سفينة وثمانية آلاف مقاتل أنزلهم في مليلية، فمر بتلمسان ودخل المغرب الأقصى، وانضم لجيشه من المغاربة تحت قيادة أبو حسون والعديد من أعداء السعديين، ودخل الصالح ريس فاس يوم (8 جانفي 1554م/3 صفر 961هـ)، ومكثت الحامية التركية أربعة أشهر بفاس، ثم رجع إلى الجزائر تاركا حامية صغيرة لحماية الأمير الوطاسي⁶.

لكن محمد الشيخ السعدي استغل وجوده بمراكش، فأستنفر القبائل وجمع عددا كبيرا من الجند وزحف بهم على فاس، فخرج إليه السلطان أبو حسون لكنه انهزم إلى أسوار فاس، وحوصر من طرف السعديين حتى ظفروا به، فقتل الأمير الوطاسي يوم السبت (24 شوال 961هـ/1554م)، وانقرضت بذلك دولة الوطاسيين⁷.

2- العلاقات مع الدولة السعدية:

في غالب الأحيان قد اتسمت العلاقات بين الدولتين بالتوتر والصدام، وبالهدوء الحذر والتعاون في أحيان أخرى، وقد سجلت فيها عدة هجومات خاصة من قبل السعديين على إيالة الجزائر العثمانية من أبرزها:

1.2- حرب محمد الشيخ السعدي مع الجزائريين:

بعد سقوط فاس سنة (956هـ/1541م) بيده، وجه السلطان-محمد الشيخ السعدي- أنظاره نحو المغرب الأوسط (الجزائر)، وقرر فتح تلمسان، وما زاده تصميماً هو فرار خصمه -أبو الحسون الوطاسي- إلى الجزائر. يقول صاحب كتاب الاستقصاء: "... فرأى الشيخ من الرأي إظهار القوة في الحرب أن يبدأهم قبل أن يبدؤوه فنهض من فاس قاصداً تلمسان في جموعه إلى أن نزل عليها وحاصرها تسعة أشهر، وقتل في محاصرتها ولده الحران، وكان ناباً من أنيابه وسيفاً من سيوفه، ثم استولى الشيخ على تلمسان ودخلها يوم الإثنين 23 جمادى الأولى سنة (957هـ/1550م)، ونفى الترك عنها ، وانتشر حكمه في أعمالها إلى وادي الشلف..."⁸.

وفي حقيقة الأمر؛ أن السعديين استغلوا انشغال -حسان ابن خير الدين- سنة 1550م، بإعداده لفتح وهران بعدما جهز جيش قوامه ألف رجل من رماة البنادق ومائة فارس وثمانية آلاف من متطوعي زواوة، فلما كان -حسن بن خير الدين- بالقرب من مستغانم، بلغه خبر أن السعديين استولوا على تلمسان فحول وجهته من وهران إلى ملاقاتة السعديين الذين احتلوا مستغانم وتقدموا نحو نهر الشلف، فألتقى الجيش الجزائري بقيادة -حسان قورصو- بالجيش السعدي، لكن قوات الشريف السعدي سرعان ما انهارت وتراجعت، فأستغل هذا التراجع من قبل الجزائريين، فأستعادوا مستغانم ، وتقدموا صوب تلمسان، فأرسل محمد الشيخ السعدي مدد من ألف رجل، والتقى الجيشان مرة

تاريخ الارسال: 2020/10/21

تاريخ القبول: 2020/12/21

تاريخ النشر: 2021/01/21

أخرى بالقرب من قبة سيدي موسى، وانتهت المعركة بهزيمة الجيش المغربي ومقتل الشريف عبد القادر ابن السلطان المغربي، وانسحب الجيش إلى ما وراء ملوية، ومن فوره دخل الجيش الجزائري تلمسان⁹.
ومن المرجح أن السبب الذي جعل الشريف السعدي يقدم على مثل هذه الخطوة من غزو أراضي المغرب الأوسط واحتلال تلمسان ثم طرده عنها؛ إنما جاء من عزمه على طرد العثمانيين من الجزائر وتلبية طلب كبار التلمسانيين في فاس¹⁰.

وفي خطوة منه لتحسين العلاقات بين إيالة الجزائر والفاسين سنة 1553م بعد واقعة تلمسان، أرسل السلطان العثماني فرماناً إلى إيالة الجزائر يأمر فيه بإيفاد وفد، وكان الشيخ -أبي عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي- من أصل جزائري على رأس هذه البعثة فدخلوا على السلطان المغربي بمراكش وفاوضوه باسم السلطان العثماني ضمن شروط من ضمنها، الاعتراف بالسلطان العثماني مقابل عدم التدخل في الشؤون الداخلية للمغرب الأقصى، وجمع كلمة المسلمين والدعاء للسلطان العثماني في منابر المغرب، وإطلاق سراح الأسرى من بني وطاس، وتحديد الحدود بين الجزائر والمغرب الأقصى، لكن ملك المغرب رفض كل الشروط وطلبات السلطان العثماني ولم يقر إلا بمسألة الحدود التي تم تحديدها¹¹.

2.2 - مقتل الشريف محمد المهدي:

لما بلغ السلطان العثماني خبر نهاية دولة الوطاسيين، أرسل رسولا إلى محمد الشيخ يهنئه بالملك ويلتمس منه الدعاء له على منابر المغرب، فلما بلغ الرسول العثماني مراكش أنزله سلطان المغرب -أبي عبد الله الشيخ- على كبير الأتراك، وكان من الأتراك الذين انضموا له بعد سقوط فاس في يده بعد زوال دولة الوطاسيين فجعلهم جنده وسماهم اليكشاري¹² -أي العسكر الجديد-، فلما اطلع السلطان على الكتاب، وجد به عرض من السلطان يتضمن الدعاء له وصك العملة باسمه، فأنزعه وعاتب الرسول وانتهره، فخرج الرسول من عنده مدعورا وركب البحر إلى اسطنبول، ولما بلغ السلطان العثماني ما كان،

تاريخ النشر 2021/01/21

تاريخ القبول: 2020/12/21

تاريخ الارسال: 2020/10/21

أراد أن يرسل حملة للمغرب، لكن الصدر الأعظم راجعه خوفاً من أن يستغل الأسبان ذلك، ولعل هذا من ضمن الأسباب. فقد ذكر الأستاذ أحمد توفيق المدني سببا لإغتيال الشيخ السعودي: "... لكن شوكة الشريف السعودي الذي اشتد أمره وقوى ساعده بمراكش، كانت تؤلم جنوب الجزائريين وتقض مضاجعهم، وخاصة بعد أن نصبوا أبا حسون بفاس تحت حمايتهم وبطش به الشريف بطشة جبارة عاتية، فكيف يتصرفون وهم لا يعرفون ماذا سيكون موقف الشريف منهم، وما أكد خوفهم إقدام السلطان المغربي على مفاوضة الأسبان قصد الوصول إلى اتفاق حربي سياسي ضد دولة الجزائر للقضاء عليها وتقسيم أملاكها بينهما، وتجسد هذا الإتفاق سنة 1555م..."¹³.

فبدل أن يرسل السلطان العثماني عمارة بحرية تم إرسال اثنا عشر رجلاً، وبذل لهم اثنا عشر ألف دينار، واتصلوا سرا بـ صالح الكاهية - كبير عسكر الشيخ ووعدوه بالمال، ثم وفدوا إلى الجزائر واشتروا ما يلزمهم لسفرهم إلى مراكش، حتى دخلوا في حضرة السلطان في فاس، فقدمهم صالح كبير الأتراك للسلطان، وزينهم له في الكلام وأوهمه بأنهم فروا من جند الجزائر، فضمهم إلى جيشه وحرسه الخاص من الأتراك، ومكثوا فترة من الزمن عنده، فلما خرج إلى موضع يقال له -آكلكال- بظاهر تارودانت في نهاية (964هـ/أكتوبر 1557م)، فأنظروا الفرصة المناسبة بعد خروجه من خيمته لمشاهدة المناورات العسكرية، ولما هم بالرجوع إلى خيمته وقع على الأرض بسبب اصطدام قدميه بجبل الخيمة، فأسرع صالح الكاهية إليه وقطع رأسه بشاقورة، وفصل رأسه عن جسده ووضع في كيس¹⁴.

وقتل الأتراك جميع حراس الشريف بالخيمة التي نصبت على ربوة فوق المعسكر، وأخذوا خيول الحراس وتحصنوا بحصن -تارودانت- بعد أن احتلوها. لكن -محمد الغالب- ابن السلطان المغتال هاجم الحصن وحاصره، غير أن أحد اليهود غدر بالأتراك وفتح أبواب الحصن، ووقع بين الطرفين قتال، ولم ينج من الأتراك إلا القليل، وقتل من جند الغالب ألف ومائتي جندي، واستطاع صالح الكاهية ومن معه من القلة الناجية من بلوغ الجزائر، وركبوا البحر وسلموا الرأس للسلطان العثماني، فأمر بتعليقه على أبواب

تاريخ النشر 2021/01/21

تاريخ القبول: 2020/12/21

تاريخ الارسال: 2020/10/21

القلعة في شبكة من النحاس، وقد كان مقتل سلطان المغرب في يوم الأربعاء 29 ذي الحجة سنة 964هـ/1557م¹⁵.

وبعد مقتل محمد الشيخ السعدي، أراد حسن بن خير الدين باشا استغلال الفوضى في فاس، فتقدم نحو -واد اللب- لملاحقة فلول السعديين الهاربين من تلمسان، لكنه اصطدم مع قوات محمد الغالب المؤلفة من أربعة آلاف خيال، فكان القتال خلال اليوم الأول شديداً، ولم يعرف المنتصر من المنهزم من الجانبين، ومع انسداد الليل قام حسن باشا بتحصين مواقعه وتحكيمها جيداً، وكان مدركاً أن قواته إن واصلت ستنهار، وإن انهارت سيكون ملاحق من قبل الإسبان في وهران، وربما يقطعون عنه طريق الرجعة، وكذلك جيش السعديين، فقام بخطة جريئة فأشعل النار في مخيمه في الليل، وانسحب في ظلام الليل، وأرسل الفرسان نحو تلمسان، وأنزل الإنكشارية مع المدفعية بجرأ حيث كان الأسطول منتظراً¹⁶.

3.2- استنجد أحمد المنصور وأخيه عبد الملك بالسلطان العثماني ولجؤهم الى الجزائر:

كان من أولاد محمد الشيخ، عبد الله الغالب، وعبد الملك المعتصم، وأحمد المنصور، ولما توفي سلطان السعديين عبد الله الغالب في (27 رمضان سنة 981هـ/1573م) بأزمة صدرية، سلب ابنه - محمد المتوكل - العرش من عميه أحمد وعبد الملك¹⁷، وقد كان مقيمين بسجلماسة منذ زمن والدهم، فلما تولى أخيهم الغالب زمام الحكم، فرا إلى تلمسان وبقي فيها مدة من الزمن خوفاً على حياتهما خاصة بعدما قتل أولاد عمه الأعرج، وعمه الآخر أبو سعيد عثمان¹⁸.

فلما حكم المتوكل أرادوا الحكم وهم بتلمسان، ولا سبيل لهم في ذلك إلا بجيش يدخلهم إلى سدة الحكم، قال صاحب الإستقصاء: "... فلما توفي وولي الأمر بعده ابنه الغالب بالله، فر عبد الملك وأحمد إلى تلمسان خوفاً على أنفسهما منه، فأقاما عند صاحبها حسن بن خير الدين مدة، ولحق بهما أخوهما عبد المؤمن فصاروا ثلاثة... ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الجزائر، ومنها ركب عبد الملك البحر إلى القسطنطينية (اسطنبول) منطرحاً على صاحبها السلطان سليم بن سليمان العثماني رحمه الله، فأمدّه بالجنود حتى ملك المغرب"¹⁹.

تاريخ النشر 2021/01/21

تاريخ القبول: 2020/12/21

تاريخ الارسال: 2020/10/21

فكانت وفادتهما على السلطان سنة (982هـ/1574م) ، وطلبا من السلطان العثماني-سليم الثاني- بأن يمنحهما المدد لكنه تأخر عن ذلك لإنشغال أسطول الجزائر وطرابلس والسلطنة بفتح تونس، فلما تم فتح تونس، أرسل السلطان العثماني²⁰ معه مدد من الجزائر، وكتب لهما فرماناً لدولتي صاحب الجزائر ليعت معهما خمسة آلاف من عسكر الترك تطأ معهما أرض المغرب الأقصى، فأشترط عليهم الديوان بأن المال سيكون من عند الأخويين أحمد وعبد الملك، والرجال سيكونون من جند الجزائر، فأقترض الأخويين من إيالة الجزائر مالا لتمويل الحملة²¹.

يذكر صاحب النزهة في قضية الإقراض وطلب الأخويين للمال "...فجاء عبد الملك مع أمه بكتاب السلطان إلى أهل الجزائر يأمرهم بالمسير معه إلى تملك ما كان بيد آبائه، فطلبه أهل الجزائر بالراتب فقال لهم أسلفوني وعلي الخلاص ، فاتفق أن يعطيهم عشرة آلاف في كل مرحلة، وكان عدد جيش الترك أربعة آلاف. وقال في شرح الدرّة أن عبد الملك طلب من ريس الترك أن يعينه بحصة منهم توصله إلى حد بلاده ليدخلها، إذ الجند كله جند والده فلا يمكن أن يقاتلوه ويضربوه في وجهه لتعظيمهم إياه، فأسغفه على مراده وأرسل معه عصابة وحصّة قليلة، فأقبل بهم إلى موضع يقال له الركن من أحواز بني وارثين من بوادي مدينة فاس المحروسة، فلما سمع محمد المتوكل بقدوم عميه بجيش الترك لقيهم بجيشه ، لكن أحد قادته على جند الأندلس انقلب عليه وانضم إلى جيش الترك وعمه، فهاله الأمر وأفرعه فتراجع هارياً²².

فرّ المتوكل إلى جزيرة بادس ومنها إلى لشبونة، حيث اجتمع بملك البرتغال-سبستيان-، فأمدّه بجيش من أفضل الجند ، وحضر على رأس جيشه ومعه السلطان الهارب، فكانت معركة وادي المخازن 1578م بالقرب من مدينة القصر الكبير أين فني معظم جيش البرتغال وقتل سبستيان والمتوكل على يد جند أحمد المنصور²³.

بعد الإنتصار العظيم الذي أحرزه أبي العباس أحمد المنصور ، أرسل صاحب الجزائر العثماني رسالة تهنئة وهدايا له ، ذكر الفشتالي، فقال: "...فكان أولهم ورودا على سدته الشريفة وأبوابه العلية المنيعة

تاريخ النشر 2021/01/21

تاريخ القبول: 2020/12/21

تاريخ الارسال: 2020/10/21

رسول صاحب الجزائر لإقتراجه فبلغ الرسالة وأدى الهدية وكان فيها من فساطيط الهند الغربية الشكل والصنعة، وزراني مبنوثة وطرف نفيسة...²⁴.

4- العلاقات مع الدولة العلوية:

في عهد العلويين اختلت كثيراً العلاقات بين الدولة العثمانية والمغرب، على إثر ضعف الدولة العثمانية وتزعزع قوتها وبداية تفكك وحدتها، منذ نهاية عهد السعديين الذين فقدوا الكثير من قوتهم وبريقهم بعد وفاة أحمد المنصور، وسمح هذا الضعف للعلويين بالبروز كقوة جديدة معادية للأتراك في الجزائر، فقد أبدوا العداء الشديد للدولة العثمانية وإيالتها بالجزائر، بل إنهم سعوا جادين للتوسع على حساب أقاليمها شرقاً وجنوباً، في محاولة لإقامة مملكة كبيرة تمتد على كامل بلاد المغرب العربي، وحثهم في ذلك أصلهم العربي ونسبهم الشريف الذي يخول لهم حق الخلافة الإسلامية بدلاً من حكام الدولة العثمانية الأتراك الأعاجم.

1.4- في عهد محمد الشريف:

يعود أصل الأشراف العلويين إلى المشرق، وقدم جددهم الأول إلى المغرب سنة (664هـ/1265م)، وقد لعب هؤلاء دوراً بارزاً في تاريخ المغرب الأقصى، ففي الوقت الذي أسس به الأشراف السعديين حكومتهم كانت سحلماسة بأيدي الأشراف الحسينيين، وبعد وفاة المنصور السعدي استغلوا الفوضى، وبدأو يطالبون بالزعامة، بحيث قام مولاي الشريف بالإستيلاء على الإدارة في حكومة الأشراف الحسينيين سنة (1024هـ/1632م).

ترك مولاي الشريف الحكومة لابنه محمد، فعمد المولى محمد فور توليه السلطة إلى إخضاع القبائل القريبة منه ومن ثم القبائل الشرقية، وحين لم يتمكن من فاس والمغرب، صرف عزمه لتمهيد عمائر الصحراء وبلاد الشرق، فجمع القبائل من حوله وأغار على بني يزناسن، وكانت هذه القبيلة تحت حكم دولة الجزائر، فنهب الأموال وممتلكات العرب، ثم توجه إلى وجده وكانت منقسمة بين مؤيد له ومؤيد

تاريخ الارسال: 2020/10/21 تاريخ القبول: 2020/12/21 تاريخ النشر: 2021/01/21

للترك، فأشتغل أتباعه في الإستيلاء على ممتلكات ممن هم تحت حكم العثمانيين، واستولى على وجدة سنة (1060هـ/1650م)، وتقدم نحو الشرق وغزا القبائل المجاورة والناحية المجاورة لندرومة ثم أغار على تلمسان، وعاد إلى وجدة ففضى فيها الشتاء، ثم أغار بعد ذلك على قبائل في أطراف الصحراء²⁵.

يقول صاحب الاستقصاء: "ولما انصرم فصل الشتاء خرج على طريق الصحراء فأغر على الجعافرة ونهب أموالهم، وقدم عليه هنالك محمود شيخ حميان من بني يزيد بن زغبة، وهم اليوم في عداد بني عامر بن زغبة... وقدمت عليه أيضا دخيسة ففرح بهم وأكرمهم، ودلوه على الأغواط وعين ماضي والغاسول فذهب تلك القرى، واستولى على أموالهم، وفرت أمامه عرب الحارث وسويد وحصين من بني مالك بن زغبة، فنزلوا بجبل راشد متحصنين به فرجع عنهم، فلما بلغ الخبر مسمع باي معسكر، أقام تحصينات وبعث بطلب المدد من الجزائر، وأرسل الأتراك جيشا إلى تلمسان، لكن المولى محمد انسحب إلى وجدة ومنها إلى جلماسة بعدما خرب الغرب الجزائري"²⁶.

ولما رأى الأتراك ما فعله المولى محمد، عزموا على مراسلته لإيقافه عند حده، فبعثوا إليه بوفد من كبار القادة الأتراك ، واثنين من علماء الجزائر وأبلغوه الرسالة، فلم يجبهم، ثم عادوا إليه وطلبوا منه الرد وذكره بخصال آل بيت النبي، وأن ما فعله تعدي وظلم، فأعطاهم عهداً وميثاقاً بأن لا يجتاز إلى الشرق مجدداً، ولا يتعدى حدوده مرة أخرى وكانت الحدود حينها نهر تافنة²⁷، وتم الإتفاق بين الطرفين سنة (1059هـ/1649م)²⁸.

2.4- عهد المولى إسماعيل:

بعد وفاة مولى الرشيد حاكم فاس يوم الأربعاء 16 ذي الحجة 1082هـ/1671م، وكان سبب موته أنه ركب فرساً جموحاً فأنطلق به ولم يتمكن من لجامه فأرتطم بشجرة فأردته قتيلاً²⁹، فخلفه مولى إسماعيل وكان خليفة له بفاس الجديد ، فعمل على إقامة حكومة قوية، وقضى على التمردات الداخلية، كتمرد ابن أخيه -أحمد بن محرز بن الشريف- في مراكش، وتمرد شمال فاس

تاريخ النشر 2021/01/21

تاريخ القبول: 2020/12/21

تاريخ الارسال: 2020/10/21

سنة (1083هـ/1672م)، ثم التفت إلى جهة الشرق وأخذ يدعم المتمردين في تلمسان لإثارة الشغب، لكن القوات الجزائرية قضت على هذا التمرد³⁰.

في المقابل وردًا على ما فعله مولاي إسماعيل، قام الجزائريون بدعم حركات التمرد، وإثارة التمردات على حكم إسماعيل، وانشغل بمحاولة القضاء على تمرد الدلائيين بقيادة -أحمد بن عبد الله- الذي حرض البربر على التمرد في مراكش، وسعى إلى إسكات الدلائيين بمنحهم عدة مناصب للتفرغ لأبن أخيه في مدينة مراكش وحصاره، لكن ابن أخيه تمكن من الفرار إلى السوس (1088هـ/1677م)، وبعد أن أدرك أن الجزائريين كانوا السبب في إثارة التمردات جهز حملة سنة (1090هـ/ 1679م)، وزحف بها شرقا وانضمت له عدة قبائل في الطريق حتى وصل نهر الشلف، فتصدت له قوة عسكرية من الجزائريين والعثمانيين، وفي أثناء المعركة انسحبت القبائل المرافقة له ولم يبق معه إلا جيشه، فاضطر إلى عقد الصلح والرجوع إلى ما وراء حدوده، وأقام على الحدود بين المغرب الأقصى والجزائر عدة حصون للمراقبة والدفاع ، فبعد ذلك تفرغ للقضاء على التمردات الداخلية خاصة ابن أخيه أحمد ابن محرز في منطقة السوس الذي كان متعاون مع الأتراك³¹.

كما قرر مهاجمة الجزائر للمرة الثانية، فأجتاز الحدود وأغار على قبيلة بني عامر الموالية للأتراك ثم عاد إلى مكناس ، لكن الجزائريين ردوا عليه بالمثل فعبروا الحدود وأغاروا على عدة قبائل تابعة لحكم المولى إسماعيل، وفي المقابل كان رده بأن قاد جيشه باتجاه تلمسان، مستغلا في ذلك ظروف الهجوم الأوروبي الفرنسي على شرشال، وحاصرها وطلب منه أمير الأمراء لإيالة الجزائر الإنسحاب والرحيل عن الأرض الجزائرية، وسرعان ما فك الحصار وعاد إلى سوس للقضاء على تمرد ابن أخيه أحمد ابن محرز، وبعد مقتل أحمد بن محرز في سوس سنة (1096هـ/ 1678م)، اشتغل المولى إسماعيل بتنظيم شؤون دولته وتفرغ بعدها للتحالف ضد الجزائر، فحاول الإتفاق مع الفرنسيين فعرض على الملك الفرنسي الزواج من إحدى بنات عائلته بغية الإتفاق مع فرنسا³².

تاريخ النشر 2021/01/21

تاريخ القبول: 2020/12/21

تاريخ الارسال: 2020/10/21

وحيثما لم يتم له هذا الإتفاق، قرر الإتفاق مع التونسيين بإعتبارهم أنهم كانوا في خلاف مع الجزائريين، فإتفق معهم على مهاجمة الجزائر، لكن الداوي شعبان علم بالإتفاق، فقرر مهاجمة التونسيين وألحق بهم هزيمة، ثم عاد بإتجاه الغرب لمواجهة الفاسيين، فأرسل سلطان المغرب جيشاً من مكناس إلى تلمسان يضم أربعة عشر ألف جندي مشاة وثمانية آلاف خيال، وعدد من المدفعية، ولما بلغ وجدة علم بقدم قوة تركية نحوه فأنسحب، وكان الجيش التركي مؤلفاً من عشرة آلاف جندي، وثلاثة آلاف خيال، وعدد من الطواير الزاحفة، واستمر الجيش التركي الجزائري في ملاحقته حتى ملوية أين ألحقوا بجيش المولى إسماعيل هزيمة انتهت بفقدانه خمسة آلاف جندي، وفر جيش الفاسيين ولحق بهم الجزائريون حتى أسوار فاس، ثم عادوا إلى الجزائر سنة (1104هـ/1693م) محملين بالغنائم، وتم معاقبة القبائل التي انضمت للفاسيين³³.

وبعد هذه الأحداث أرسل إسماعيل إلى الجزائر وفد مكون من ابنه عبد المالك والمرابطي طيب بن محمد الفاسي لعقد الصلح وتم له ذلك، ولكنه كان في نفس الوقت منزعجاً من الهزيمة التي لحقت به ففي 9 ربيع الأول سنة 1106هـ الموافق لـ 29 أكتوبر 1694م، أوعز لإبنه زيدان بمهاجمة الجزائر، فأغار على بعض القبائل الحدودية ثم عاد مسرعاً، وبعد هذه الأحداث أرسلت الدولة العثمانية من استطنبول وفد تطلب من المولى إسماعيل إقامة الصلح مع الجزائر، فقبل بذلك ورحب به سنة (1111هـ/1699م)، فقسم الحكم على أولاده، فأعطى منطقة تازة لأبنه زيدان فتحرك لمحاربة الجزائر بإيعاز من والده، وكان هجومه بالموازاة مع هجوم أمير تونس - مراد بك - على قسنطينة سنة (1112هـ/1700م)³⁴، فوصل زيدان إلى معسكر ودخلها وسلب أهلها ونهب دار البايك، وعقد الصلح مع الجزائريين لتهدئة ونقل غنائمه إلى بلاده، فأثار ذلك غضب والده فعزله، لأنه لم يستفد من انتصاره، وخرج بنفسه بجيش كبير واتفق مع التونسيين لمهاجمة الجزائر، واجتمع جيش الفاسيين مع التونسيين، وجيش الداوي مصطفى من جهة أخرى في إحدى المناطق الواقعة بين سطيف وقسنطينة بتاريخ (03 أكتوبر 1700م/1112هـ)، وتمكن الداوي مصطفى من إلحاق الهزيمة بالفاسيين والتونسيين، إذ أن تعداد جيش الفاسيين كان حوالي خمسون ألف جندي، وقد بدأت المعركة ظهره 20 ذي

تاريخ النشر 2021/01/21

تاريخ القبول: 2020/12/21

تاريخ الارسال: 2020/10/21

القعدة 1112 هـ الموافق لـ 28 نيسان 1700م، وجرح المولى إسماعيل في هذه المعركة، وأسر من جيشه ثلاثو مائة جندي وخمسون قائداً³⁵.

ولما يأس المولى إسماعيل من إمكانية تحقيق أي انتصار على الجزائريين، حاول عدة مرات الهجوم على وهران لتحريرها من قبضة الأسيبان في الفترة الممتدة من (1107هـ/1699م)، فهاجم عدة حصون، كحصن - روزا الكزار-، لكنه فشل بسبب قوة التحصينات الأسيبانية وخسارته الفادحة، هذا الأمر كان كفيلا بإثارة إرتياب الأتراك من تدخله المستمر في شؤون الجزائر، فقد أرسل السلطان العثماني مصطفى الثاني بن محمد (1106هـ/1703م) ضمن سفارة عثمانية إلى المولى إسماعيل مؤرخة في (1696 م/1704م)، جاء فيها: "...لقد ورد علينا كتابكم الذي يعبر عن الود والصداقة المتوارثين فيما بين الأمتين... وأنه حين جلوسنا على العرش، ونحن نقوم بأنفسنا على تقرير قواعد الملة خدمة لمصالح الأمة، ورفعنا لراية الجهاد وحماية للشعور الإسلامية، وأنا لن نسمح بقيام المحظورات الشرعية في بلادنا"، ثم أعاد السلطان العثماني مراسلة المولى إسماعيل في رسالة أخرى في 22 شوال 1110هـ/22 أبريل 1699م، باللغة التركية جاء فيها: "...أن الجزائر ضمن ممالكنا المحروسة... وإن سكان البلاد وأهلها وحكامها، وجندها منقاد من بعد أجدادنا لنا... وإنه ما تزال توجد مليونية، والبريجة، وسبته وبادس، وهي تقع في جوار تلمسان، ووهرا تريدون أن تحوزوها بأعذار واهية..."³⁶، وعندما فتح الجزائريون وهران بعث المولى إسماعيل رسالة تبريك وتهنئة إلى استنبول³⁷.

خاتمة:

تاريخ النشر 2021/01/21

تاريخ القبول: 2020/12/21

تاريخ الارسال: 2020/10/21

من خلال ما سبق التطرق له، نلاحظ أنه قد تباينت أشكال الصراع وطبيعة العلاقات السياسية بين العثمانيين بالجزائر مع المغرب الأقصى عبر المراحل، وحسب الظروف التاريخية والسياسية وحتى الإقتصادية، فكانت توجهات الوطاسيين توجه سلمي يطمح لتوحيد الجهود في مواجهة الأطماع الأجنبية الإسبانية والبرتغالية.

أما في العهد السعودي، فقد أثر محمد الشيخ السعودي بأطماعه التوسعية على العلاقات الحسنة ووظف الأغراض الشخصية على حساب المصلحة المشتركة بين المسلمين، فقد كانت نظرتهم للوجود العثماني في الجزائر نظرة عدائية واعتبرها احتلال وجب شن الحملات عليه وذريعة لشن حملاته لتحقيق أطماعه.

أما في العهد العلوي، فقد استهلها العلويين بالتوسع على حساب القطر الجزائري في عهد الرشيد أملاً في اكتساب أرض جديدة خاصة وأن المغرب الأقصى كان يشهد صراعاً داخلياً، ورغم ذلك أكد حكام العثمانيين بالجزائر مراراً على ضرورة إقامة علاقات سلمية من خلال التفاوض، أما في عهد المولى إسماعيل فكان موقف الجزائر موقف دفاع ضد الحملات المغربية المتتالية، وبمجرد انتهاء عهد إسماعيل تراجعت حدة التوتر بين البلدين.

في ذات الوقت وفي الجانب الإقتصادي، فقد ظلت العلاقات مستمرة وقائمة، وكانت الموانئ تسهم في تعزيز الروابط التجارية بين البلدين، ونذكر ميناء مدينة سلا فكانت منفذ على المغرب، كما هو الحال لتلمسان على الطريق البري.

وأخيراً يمكن القول، بأن الصراع المتواصل بين الطرفين، جعل هذه العلاقة قد شهدت عدة توترات نتيجة أطماع التوسع لدى الطرفين، فكانت لدى السلطان مولاي إسماعيل رغبة في التوسع نحو الشرق أي على حساب أراضي الجزائر، فبسبب ذلك وقعت عدة حروب بين الجيشين، كما وقعت عدة مناوشات من طرف أتراك الجزائر حول الحدود المغربية وكذا مساندتهم لثورة ابن محرز، فقد سارت بينهم عدة سفارات وتم عقد عدة اتفاقيات صلح كما كانت مساندة بعض عناصر من أتراك الجزائر للجيش

تاريخ النشر 2021/01/21

تاريخ القبول: 2020/12/21

تاريخ الارسال: 2020/10/21

الإسماعيلي عند تحرير ثغوره، وقد لعبت الروابط الدينية دوراً كبير في هذه العلاقات، كما أن التعاون بين البلدين فيما يخص الجهاد وكذا التجارة قد ظل قائماً.

الهوامش :

- 1- عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، أكاديمية المملكة المغربية ، المغرب، 1988م، (د.ط)، ج7، ص191.
- 2- المدني، أحمد توفيق، حرب الثلاث مائة سنة بين الجزائر واسبانيا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط.ت)، ص190.
- 3- التازي، المرجع السابق، ج7، ص309.
- 4- مؤلف مجهول، تاريخ الدولة السعودية التكميلية، تحقيق: عبد الرحيم بن حمادة، ط1، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش المغرب، 1994م، ص20-22.
- 5- المصدر نفسه، ص21.
- 6- توفيق المدني، المرجع السابق، ص342.
- 7- الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصاء الأخبار لدول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، دار البيضاء، المغرب، 2000م، (د.ط)، ج4، ص161.
- المرجع نفسه، ج4، ص162.⁸
- 9- توفيق المدني، المرجع السابق، ص329.
- 10- ألتز، سامح عزيز، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، ترجمة: محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1989م، ص178.
- 11- توفيق المدني، المرجع السابق، ص331.
- 12- إن أصل اللفظ هو الإنكشارية، لكن محمد السعدي غير هذا اللفظ وعدله.
- 13- توفيق المدني، المرجع السابق، ص360.
- 14- المرجع نفسه والصفحة.

تاريخ النشر 2021/01/21

تاريخ القبول: 2020/12/21

تاريخ الارسال: 2020/10/21

- 15- الناصري، المرجع السابق، ج5، ص35.
- 16 - ألتز، المرجع سابق، ص204.
- 17- المرجع نفسه والصفحة.
- 18- التازي، المرجع السابق، ج8، ص9.
- 19- الناصري، المرجع السابق، ج5، ص59.
- 20- السلطان العثماني الذي خلف سليم الثاني هو السلطان مراد الثالث (8 رمضان 982هـ/22 ديسمبر 1574م-5 جمادى الأول 1003هـ /16 يناير 1595م).
- 21- الناصري، المرجع السابق، ج5، ص63.
- 22- الأفراني، محمد الصغير، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق: هوداس، مطبعة بردين، انجي، 1888م، (د.ط)، ص62.
- 23- التازي، المرجع السابق، ج8، ص8-9.
- 24- أبي فارس عبد العزيز القشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق: عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، المغرب، (د.ط. ت)، ص49.
- 25- الناصري، المرجع السابق، ج7، ص19.
- 26 - المرجع نفسه، ج7، ص20.
- 27- التافنة نحر يميل إلى الصغر ينبع من الصحراء ويعبر صحراء أنكاد ويصب في البحر المتوسط مارا على تلمسان بنحو بعد 19ميلاً. ينظر: حسن الوزان، وصف افريقيا، ترجمة: محمد حجي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ج2، ص250.
- 28 - المصدر نفسه، ص22.
- 29 - الأفرني، المصدر السابق، ص304.
- 30 - ألتز، المرجع السابق، ص437.
- 31- أبو القاسم الزباني، الترجمان المغرب في أخبار دول مراکش والمغرب، (د.ط. ت. دن)، ص17.
- 32- ألتز، المرجع السابق، ص440.
- 33 - المرجع نفسه والصفحة.
- 34- ألتز، المرجع السابق، ص440.

تاريخ النشر 2021/01/21

تاريخ القبول: 2020/12/21

تاريخ الارسال: 2020/10/21

35- نفسه، ص441.

36- بن قايد عمر، أضواء على علاقات الجزائر مع المغرب الأقصى خلال القرن 11هـ/17م، مجلة الواحات للبحوث والدراسات ، جامعة غرداية، العدد17، 2012م، ص148.

37- ألتز، المرجع السابق، ص147.

قائمة المصادر و المراجع:

- 1- عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، أكاديمية المملكة المغربية ، المغرب، 1988م، (د.ط).
- 2- المدني، أحمد توفيق، حرب الثلاث مائة سنة بين الجزائر واسبانيا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط.ت).
- 3- مؤلف مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدارية، تحقيق: عبد الرحيم بن حمادة، ط1، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش المغرب، 1994م.
- 4- الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصاء الأخبار لدول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، دار البيضاء، المغرب، 2000م، (د.ط).
- 5- ألتز، سامح عزيز، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، ترجمة: محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1989م.
- 6- الأفراحي، محمد الصغير، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق: هوداس، مطبعة بردين، انجى، 1888م، (د.ط).
- 7- أبي فارس عبد العزيز القشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق: عبد الكريم كريمة، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، المغرب، (د.ط. ت).
- 8- حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م.
- 9- أبو القاسم الزياني، الترجمان المغرب في أخبار دول مراكش والمغرب، (د.ط. ت).
- 10- قايد عمر، أضواء على علاقات الجزائر مع المغرب الأقصى خلال القرن 11هـ/17م، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، العدد17، 2012م.